عبد الجبار عباس في ذكراه

عبد الجبار عباس

باسم عبد الحميد حمودي

لو عاش حتى يومنا هذا، أو بالضبط حتى اليوم الثالث من كانون الأول من هذا العام لكان عمره ٦٤ عاماً وهو عمر النضوج الشامل والتشكل شبه النهائي لصاحب الموهبة الكبيرة مثل الناقد عبد الجبار عباس الذي توفي في مثل هذا اليوم من عام ١٩٩٢ في مدينته التي ولد فيها عام ١٩٤١، مدينة الحلة وقد ترك جو بغداد الثقافي والسياسي خلفه منذ سنوات وقد أرهقه الزيف وضياع التقاليد الأدبية وعصابية (المستثقفين) الجدد من سكنة الدهشة من كل شيء والخوف من قلم المثقف وسوء الفهم المسبق له ولتصرفاته والشك بكل موقف يصدر عنه.

كان عبد الجبار عباس قبل إصداره كتابه النقدي الأول (مرايا على الطريق) عام ١٩٧١ كبيراً في تألقه النقدي وهو بعد شاب في الثلاثين لقد كان صوتاً يتمتع بذائقة جمالية عالية، تحلل المنجز الإبداعي نثراً وشعراً دون اهتمام بمسلمات مسبقة، كان انطباعي المنهج وكان يدافع عن انطباعيته وذائقته النقدية الحرة بالقول، إنه يقدم للقارئ أسرار الجمال في النص موضع النقد دون مسطرة وبركار يقيسان النوايا.

تخرج عبد الجبار عباس في كلية الآداب جامعة بغداد عام ١٩٦٤، وعاد إلى مدينة الحلة دون أن يجد وظيفة مناسبة فهو يكره أن يكون مدرساً يقف وسط التلامذة ليضيع بينهم، فاختار إكمال ثقافته الأدبية بعد التخرج داخل بيته منصرفاً إلى قراءة مستفيضة للإصدارات القديمة والحديثة حيث بدأ يكتب عنها في جريدة (الأنباء الجديدة) وفي مجلة (الكلمة) حتى استطاع أن يجد له عملاً كمحرر في القسم الثقافي لإذاعة بغداد وكان رئيس القسم يومها الشاعر الكبير حسب الشيخ جعفر حيث قامت بينهما مودة وحس تفاهم، وقد اسهم عبد الجبار عباس وهو في موقعه هذا بالاتصال بالأدباء والاهتمام بهم وفتح الطريق للكثير منهم للعمل في القسم كمعدي برامج أو محاورين.

وكانت قدرة عبد الجبار عباس النقدية قد أتاحت له إعداد كتابه الشامل عن شاعرية (السياب) نشر عام ١٩٧٢ ببغداد ليشكل إضافة مهمة للكثرة من الكتابات الصادرة عن شاعر التأسيس مما جعله مرجعاً للعديد من الدراسات حول السياب.

قبل ذلك كان عبد الجبار عباس قد أصدر ديوان شعره اليتيم (أشواك الوردة الزرقاء) عام ١٩٧٠ الذي لم يجد صدى واسعاً يؤشر شاعريته فأدرك أن الانصراف للعمل النقدي وحده هو أساس تفوقه وقدرته على العطاء في هذا الحقل الحيوي حيث أصدر عام ١٩٨٠ كتابه النقدي الثالث (في النقد القصصي) ثم اصدر كتابه الرابع (مرايا جديدة) بعد عام جامعاً بين الدراسات في الشعر وفي القصة مؤشراً البنية الفنية للنص الإبداعي العراقي والعربي الجديد طارحاً مشكلات التجنيس والتغريب والإزاحة والكشف بلغته الدقيقة الواضحة المحللة التي لا تحتمل اللبس أو الإيهام بل وضع قيمة النص في مكانها الفني.

بعد ذلك رحل عبد الجبار عباس إلى القاهرة خلال عام ١٩٧٩ ليتعلم فيها شهراً وليلتقي بمبدعها الكبير نجيب محفوظ ويرى ويناقش قاصه الأثير (أبو المعاطي أبو النجا) وسواه من كتاب القصة وليلتقي بأجيال عديدة من الكتاب متعرفاً على لون من العلاقة الاجتماعية الحميمة بينهم وهو أمر افتقده عباس كما افتقده كثيرون منا فعاد من هناك مثقلاً بحزن شفيف للتشرذم الذي كان عليه الأديب العراقي وللغة القسر التي كانت تمارس ضده فترك عمله في الإذاعة برغم إلحاح كثيرين واستقر مرة أخرى في مدينته الأثيرة (الحلة) حيث وجد في العودة إلى الجذور نوعاً من الاستقرار النفسي وهو في تفسيرنا يشكل نوعاً من النكوص والعودة إلى الرحم الأثير تخلصاً من مشكلات الخارج الدامي المستلب، وكان ابتعاده هذا عن الأضواء عودة لإعادة تقويم كل كتاباته وابتعاداً عن قسرية قد تفرض عليه وحرصاً على استقلالية رأي يريدها لنفسه، وقد كان، وكان الوسط الثقافي يحتاج إلى قلم عبد الجبار عباس ودفقه النقدي البناء لكنه عمل في جريدة اسبوعية كمحرر ثقافي يرعى نتاجات الشباب ويقومها وهو أمر كان لا يكلفه دواماً مستمراً بل قضاء لليلة في بغداد كل أسبوع لكنه كان يحس تعب المبدع وضيقه بجنرالات الثقافة من غير المبدعين فكان موته (فجيعة) إذ (وقعت صاعقة على عارٍ في فضله) كما كتب أ.د. علي جواد الطاهر الذي قال أيضاً: (أضاعه قومه في حياته ثم اضاعه الموت والنقد السليم هو الخاسر)، وقد جمع الدكتور الطاهر والقاص عائد خصباك مجموعة مقالاته التي لم تنشر في كتاب وأصدراه عام ١٩٩٤ بعنوان (الحبكة المنغمة) مع مقدمة تحليلية لأدب الفقيد النقدي، ذلك المتواري تحت سجف الموت الجسدي ولكنه ظل إشارة دائمة لإمكانية نقدية كبيرة خسرها الأدب العراقي.

مرايا المعلم الأخيرة

ناجح المعموري

أنجز الشاعر هادي الربيعي إعداد وتقديم " مرايا أخيرة " وهو مقالات في النقد للراحل عبد الجبار عباس وسأتحدث عن هذا الكتاب وكيفية انجازه من قبل الناقد الراحل أشار الأخ الربيعي للفترة التي عمل الراحل محرراً في جريدة الراصد وأشرافه على الصفحة الثقافية التي كانت واحدة من أهم الصفحات الثقافية وتشارك انذاك مع المرحوم الناقد يوسف عبد المسيح ثروة في تحرير صفحتي الثقافة والمسرح والثانية خاصة ثروة والأولى للناقد عبد الجبار وللحقيقة لابد من الإشارة للجهود التي بذلها الاثنان في إعداد ثقافية الراصد متميزة وقد استقطبت أسماء مهمة في المجال الثقافي والفني.. واعتقد بان فترة إشرافه على ثقافية الراصد كانت في السبعينيات لكن الأستاذ الفكيكي

حول الثقافية الرصينة إلى صفحة معنية بكتابات الشباب الذين هم في أول الطريق، وكان لذلك تأثير كبير

–كما روى لي المرحوم عبد الجبار– ازدياد توزيع الراصد وكان يذهب مرة واحدة في الأسبوع، يقدم الصفحات المعدة ويتسلم بريده وكان خيالياً من حيث الكمية والتنوع وهو حرص على اشتراك المساهمين بأي شكل من الأشكال عبر الردود والتعليقات وكثيراً ما أنجز صفحاته ونحن في المقهى مع تعليقات ساخرة وأخرى معبرة عن إعجابه، ومبشرة بشاعر أو قاص، لأنه اهتم ببريد الشباب المرسل إليه وكان كثير الفرح عندما تصله مساهمة من شابة وانتبه عبد الجبار للإشكالات التي كان ومازال الشباب يعانون منها في الفهم والوعي وكيفية التعامل مع الأدب والفنون لذا انشغل فترة طويلة جداً، لان الفترة التي اهتم بها بكتابات الشباب كان مكلفاً من القسم الثقافي في جريدة الثورة وبتكليف من الأخ الشاعر حميد سعيد يتمكن من تلبية احتياجاته الشخصية لأنه لم يستجب انذاك إلى العمل الوظيفي بعد فترة قضاها في الإذاعة وعمل بشكل جدي وكبير في إعداد أرشيف للقصة العراقية مع قصاصين آخرين، هذه الفترة التي ألقت بظلالها السوداوية على شخصية عبد الجبار وعاد مهموماً ومنكسراً ولأسباب عديدة وخسر بانسحابه المفاجئ من الإذاعة كتابه النقدي الذي تفرغ له طويلاً عن الشاعر حسين مردان كان يردد كثيراً " سرقوه مني " وأتذكر حسرته على ضياع دراسة مهمة جداً وطويلة عن الروائي غائب طعمه فرمان، وبسبب انشغاله وارتباطه الأسبوعي مع القسم الثقافي كان يسلم المقال النقدي للقاص جهاد مجيد الذي عمل محرراً في ثقافية الثورة ويسلمه مجموع المكافآت في نهاية الشهر، لذا بدت تواريخ مقالاته التي نشرها في الراصد متباعدة أحياناً بسبب التزامه الأسبوعي مع ثقافية الثورة والتي جمعها في كتاب " الحبكة المنغمة " د. علي جواد الطاهر والصديق عائد خصباك لكني اعتقد بان ما أعده الصديق الشاعر هادي الربيعي لم يكن متكاملاً وحتماً ضاع على الصديق الشاعر بعض منها، لأني رأيت الكتاب عند الراحل عبد الجبار عباس أكثر من مرة وتحدث عنه بإعجاب بوصفه مصدراً ثقافياً أولياً للطلبة في الجامعات ولمن اهتم مبكراً بالأدب، وحرص أن يكون متنوعاً والمقالات فيه موجزة لأنه محكوم بمساحة ممنوحة له في صفحة الكتابات الشابة وكل الأصدقاء في بابل رأوا الكتاب لديه مرات كثيرة متمنياً نشره كمساعد للطلبة وآلت المخطوطة إلى عائلته وهي عبارة عن المقالات المنشورة، مقتطعة من الراصد وملصوقة وكتب تقديماً مركزاً وقدمه إلى دار الشؤون الثقافية استجابة لضغوط أصدقائه، لكن مفاجأة الراحل عبد الجبار كانت كبيرة ومؤلمة له عندما عرف بموقف د. محسن الموسوي الذي كان مديراً عاماً لدائرة الشؤون الثقافية والرافض لنشر الكتاب في وقت كانت الدار تصدر العشرات من الكتب النقدية الهابطة عن أدب الحرب ركن كتابه في مكتبته حتى لحظة وفاته حيث وضعت العائلة يدها على كل ماتركه الراحل. وتأتي مبادرة الشاعر هادي الربيعي كريمة بوفائها وإخلاصها لتاريخ طويل من العلاقة الصداقية الموحدة للاثنين بسبب عملهما الثنائي في الراصد وانشغل الربيعي بإعداد المقالات وتقديمها للنشر ظهرت عن الدار التي رفضته بعد اثنتي عشرة سنة من غيابه الأبدي. مبادرة الشاعر هادي الربيعي تعبير عن وعي ثقافي لأهمية التجربة النقدية للراحل وتفرده عن غيره من النقاد في الثقافة العراقية على الرغم من الاختلافات معه بسبب منهجه النقدي المعروف، لكنه كان مفتوناً به وان لم يكن انطباعياً بالكامل، لان مقالاته عن القصة والرواية والشعر منشغلة بالاجتماعي والسياسي والجمالي. والعودة إلى دراساته النقدية عن العودة إلى المنفى للقاص (أبو المعاطي أبو النجا) وحيطان عالية لادوار خراط ويوسف إدريس في لغة الآي أي بان عبد الجبار لم يكن انطباعياً فقط وفي أيامه الأخيرة انشغل بالمناهج النقدية الحديثة وتفرغ فترة طويلة لقراءة المصادر الحديثة الموجودة في مكتبة اتحاد أدباء بابل. وهذا الكلام ليس دفاعاً عن عبد الجبار الذي عاش انطباعياً ومتأثراً بمعلمه د. علي جواد الطاهر.. أخيراً شكري للصديق هادي الربيعي على ما انشغل به زمناً طويلاً وكلمتي تحية له واستعادة لذكرى صديقنا العزيز الراحل عبد الجبار عباس.

مختارات نقدية له

القصة والنقد بين المصطلح والإبداع

عبد الجبار عباس

مقالات أستاذنا الدكتور علي جواد الطاهر في النقد القصصي ثمرة لقاء بين ذوق انطباعي حساس مثقف، وبين رغبة وطموح: رغبة في توخي الدقة المنبثقة عن العلم والتواضع، وطموح إلى مزيد من النضج والإبداع يصل أدبنا –عن جدارة– بروائع الأدب العربي والعالمي.. فهو إذ يتناول، الظواهر والأعمال القصصية بحساسية الناقد المحيط المتمرس، يوفر لهذا التناول اتساقاً نقدياً منطقياً هو ثمرة الرؤية الشاملة المتبلورة المحصنة بالتدقيق الأكاديمي ولكن الطموح ما يلبث أن يجذب بعض آرائه إلى بعد يعرفه الطاهر عما التزمه وتوخى إشاعته من دقة، بدافع من تشجيع حينا، وانتظاراً لما هو أضخم حينا آخر.. وذاك ما سمح لبعض التناقضات الصغيرة أن تتسرب إلى بناء مقالته المهمة (القصة العراقية في ضوء مصطلح الرواية)، ومهد لذلك نصه على (الأسماء الخاصة لم تكن من وضوح التحديد بحيث تمنع الخلط ومبادلة الإطلاق وتحول دون المناقشة والمجادلة).

فبعد أن كرس الطاهر الحلقة الأولى من مقالته لتتبع التحديد واللا تحديد في مصطلح القصة الغربية معيداً وموسعاً ما عرضه في مقدمة (أقاصيص مترجمة – ملحق مجلة المعلم الجديد ١٩٥٧) راح يتتبع ظاهرة التحديد واللا تحديد في مسيرة القصة في العراق عبر محاولتها إنشاء الرواية الفنية كما عرفناها في آداب الشرق والغرب.. ووضع الطاهر في نهاية هذه المسيرة التي لم تكد تبدأ مثالاً صعب التحقيق، أو نموذجاً عسير المنال، هو شوامخ الرواية الكلاسيكية أبان ازدهارها العظيم على أيدي كبار روائيي القرن التاسع عشر. وقد كان المتوقع أن يملأ الطاهر هذه الثغرة بين دقة ولا دقة المصطلح في الغرب وبين مسيرة القصة العراقية نحو مصطلح (الرواية)، الدقيقة، بحلقة ثانية يتتبع فيها مسيرة القصة الأوروبية والعالمية نحو هذه الدقة، أو يعرفنا بمرافقة النقد الأوروبي لهذه المسيرة.. وتلك مهمة جليلة من مهمات الناقد عندنا، وبخاصة إذا كان كأستاذنا الطاهر محتشداً لها بمعرفة تاريخ القصة الأوروبية، فالتعريف بالتاريخ النقدي للرواية الأوروبية والعالمية هو المدخل الصحيح والضروري لكتابة (تاريخ نقدي) للقصة في العراق ما دامت تلك الرواية هي الأصل، وما دام الناقد يتخذ من قممها الخالدة مثالاً وهدفاً.. ولئن كانت مقالة الطاهر خطوة جادة نحو تحقيق هذه المهمة قد كان إغفال التعريف برحلة القصة الأوروبية نحو الرواية –الرواية، إلزاماً لكتاب القصة عندنا بتحقيق مثال لا يعرفون كيف تحقق، وإسقاطاً لدور الفارق الحضاري الشاسع بين المسيرة الأم التي تجاوزت المثال وأضافت إليه فلم يعد إطلاق لفظ (الرواية) على أعمال لا تقل عنها أعمالنا يتم في غياب التدقيق الأكاديمي، وفي علم بحدود الإطلاق لكنه دلالة على تطور (المصطلح النقدي) بعد تطور الفن الروائي ذاته، وبين ممارسات جادة أو متعثرة أو دخلية تتنفس مناخاً حضارياً متخلفاً، فلا وجه للمقارنة، وبخاصة إذا كنا بصدد محاولات التعرف والريادة، ومحاولات التجديد والتجريب، بين ما أنجز من قصص عراقية وبين مثال ثابت شامخ لم يزعم قصاصونا أنهم يسعون لمحاكاته، إن لم تكن لهم طموحات أكبر من ذلك، وهو ما يعنيه الطاهر بقوله: (لم يكن البعض يتهيب مجرد الحلم بمحاكاته، فذاك ما يجنبنا المقارنة بين أثر أول لكاتب ناشئ وبين روايات ستندال ودستوفسكي وسارتر وكامو وكافكا.. هي مقارنة غير واردة لا بسبب اختلاف (ضخامة) المواهب والقدرات فحسب، بل وبسبب إننا، سعياً لبلوغ المثال، نهمل اختلاف (الهدف) ونلغي تأثير مجمل الظروف المختلفة. وليس في هذا دعوة إلى الرضى بما هو واقع، ولكنه وضع للطموح والأمل في إطار صحيح من الامكان، ومن تاريخ الأدب أيضاً.. فإذا كنا (لسنا متعصبين للفصل بين الأنواع الأدبية) ولتجفيف المصطلحات، فإن القضية الأساسية لا تعود سعياً للمحافظة على الحدود بعد أن استقرت المصطلحات المترجمة، فتلك هي الخطوة الأولى التي تتحقق بأن يضع الكتاب أو نضع نحن أسماء صحيحة للمسميات بدافع من تواضع أو علم.. ولابد بعدها من تشخيص نقدي دقيق لحقيقة هذا الذي أنجز ولمساره النقدي، وذاك ما راح يتضح شيئاً فشيئاً عبر حلقات المقالة، وإن ظل مشدوداً بدافع الطموح إلى المثال الذي تتهاوى دون بلوغه أغلب القصص العراقية، أو تكون خطوات جديرة بالثناء على قدر اقترابها منه، لذا فإن الناقد المستجيب للإبداع والباحث عنه يفلت من أسار المحقق المدقق ويناقضه.

ليس لنا إذن أن نقترح على أستاذنا الطاهر مساراً جديداً لمقالته، فهي تظل أمينة على حدودها، مخلصة لهدفها الكبير، لكنها إذ تعرض الآثار العراقية على مرآة الرواية –الرواية، تخلط بين مزايا آثار لم تقدم على إنها روايات وعيوب آثار قصرت عن أن تكون روايات ناضجة، ويمسي الخليط دلائل على أن كتابنا لم يعرفوا الاتجاه الصحيح نحو الرواية المنشودة، أو إنهم بعد أن عرفوه قصرت خطاهم عن أن تبلغ نهايته، وهي في الرواية العالمية قمته الغابرة.. فحتى مرحلة التأسيس والتأصيل الناضج الممثلة في روايات فرمان، والتي تصح فيها المقارنة بين الإنجاز والمثال، تفرز من السلبيات ما لا تعود معه الآثار روايات عادية أو مخلخلة البناء، بل مطولات وروايات قصيرة.

إن مزايا (مجنونان، اللعبة، الظامئون، ضجة في الزقاق) تنقلب عيوباً أو تشخص بما يبقى قصة أرادت أن تدخل بالأزمة جواً كابوسياً فلم توفق.. حتى إذا لمح الطاهر مدخلاً روائياً ذا فن ومعرفة في (جواد السحب الداكنة) لم يكن اضطرابه المزدحم في الصفحات التالية دليلاً على أن المؤلف قد لا يكون واعياً بشروط البناء الروائي: بل هو دليل على أنه (يملك القوة على أن يكتب رواية قصيرة جيدة لم يكتبها).. وهكذا تمسي الرواية القصيرة – التي هي الآن أكثر الأنواع القصصية دقة ونضجاً وازدهاراً – ميداناً لاستقبال الروايات –اللا روايات، سواء كانت سهلة لينة شاعرية الجو مأنوسة اللغة أو خارج عالم ضيق وبيئة محدودة وفكر غير عميق وهدف لا يوصله المؤلف.. غير زمن كنا نسوي فيه خطأ بين الرواية القصيرة والقصة القصيرة الطويلة حصراً لهما في هذا البين بين، الذي هو (قصة) تتوسط بين مصطلح (الرواية) بعد انقراض مصطلح القصة الطويلة، وبين (الأقصوصة) بعد ظهور مصطلح القصة القصيرة وضمور (القصيرة جداً).

إن الرواية القصيرة ليست رواية صغيرة أو رواية قصرت عن بلوغ الرواية –الرواية، بل هي فن قائم بذاته يجتاز سمات البناء الروائي في حدود لا يتجاوزها، إذ لا حاجة به إلى هذا التجاوز، ولعله ثمرة ناضجة للاتقان والتهذيب والتركيز في فن الرواية لا يحول ضيق حدودها دون الضخامة والعمق والبقاء، إن لم يكن هذا الضيق طريقاً إلى مزيد من العمق (الغريب رجال في الشمس، ميرامار، كانت السماء زرقاء) بينما القصة القصيرة الطويلة امتداد معاصر لفن الأقصوصة القديم: وحدة موقف متطور أو مستعاد على خط واحد يضم شخصية أو أكثر (الشيخ والبحر، موديرا كانتبل، ما تبقى لكم، الوجه الآخر). إن استلال قوانين البناء والتكوين من الآثار الناضجة هو السبيل إلى التحديد والتمييز الذي ينهي تذبذب هذا النوع الوسط بين الرواية والأقصوصة.

مقالة الطاهر تنقيب جاد عن (الصفحات القصصية الجياد). وكما سعى في نقده القصصي إلى بلورة مصطلح نقدي صحيح للأقصوصة الواقعية الكلاسيكية المحدثة في أرقى وأنضج نماذجها فإن مقالته الجديدة مسعى إلى بلورة مصطلح نقدي صحيح للرواية في نماذجها الضخمة الخالدة.. وكما استجاب ذوق الناقد المؤمن بالتطور للجديد في الأقصوصة العراقية، يحق لنا أن ننتظر استجابة أرحب للجديد في الرواية عندنا، فلا تعود آثار دستوفسكي وستندال وبلزاك مقياساً ومثالاً، بل تمسي تراثاً وينبوعاً، فذاك أجدى في بقاء الطريق مفتوحاً إلى الرواية... وإذا كان المهم هو الإجادة، فقد عرف أدبنا الرواية الجيدة المبنية على أسس التراث الروائي الكلاسيكي فكانت (النخلة والجيران، خمسة أصوات، الظامئون، شقة في شارع أبي نواس، النهر والرماد).. ومهد لذلك أو تخلله أننا عرفنا القصة القصيرة الطويلة الجيدة (مجنونان، الرسائل المنسية، حدث في الليلة الماضية، في الطريق، الوجه الآخر، اللعبة، الوشم، رجل الأسوار الستة).. ولعل هذا النوع من أدبنا هو الأقدر على التاصل والازدهار.

"من كتاب في النقد القصصي"